طلقة (٢)

(في الكونغو)

يعرفون الهداف
ويجهلون المقاتل ؟!

سألت أحد الشباب الذي ولد خلال حكم حسني مبارك الذي استمر ثلاثين عاماً قبل أن تضع ثورة ٢٥ يناير حدا له، عن الفريق سعد الدين الشاذلي وأجاب بكل ثقة انه لا يعرف إلا المرحوم الكابتن الشاذلي هداف مصر الكبير في كرة القدم والمحلل الرياضي بإستاد النيل ولم يكن يمزح ولا أنا بمندهش.. فالأجيال هذه لم تشهد أمامها سوى مبارك وقد قال لهم نظامه في الكتب الدراسية انه بطل أكتوبر الوحيد وان الحرب يمكن تلخيصها في ضربة جوية قام بها مبارك ومن يعملون تحت قيادته.. ولم لا.. والصورة الشهيرة في غرفة العمليات أثناء حرب أكتوبر قد تم تزويرها لابراز مبارك قائد القوات الجوية.. والترتيب العسكري الراسخ أن يتوسط الطاولة القائد الأعلى للقوات المسلحة وهو رئيس الجمهورية وعن يمينه ويساره القائد العام وهو وزير الحربية (المشير أحمد إسماعيل) ورئيس الأركان ثم بعد ذلك يقف رئيس هيئة العمليات وهو المشير الجمسي ثم بعد ذلك قادة القوات الجوية والجوية والبرية..

والصورة تم تغييرها حتى في بانوراما حرب أكتوبر... وقد يسأل الشاب وهذا حقه لماذا بلغت كراهية مبارك للشاذلي درجة التجاهل وإغفال دوره وإهماله وعدم الحديث عنه؟

الإجابة تحكيها قصة الشاذلي الذي يعتبر نموذجا بديعا للعسكرية المصرية ولد في قرية شبراتنا مركز بسيون.. لعائلة كبيرة فيها الكثير من القادة.. شارك في الحرب العالمية الثانية بعد تخرجه من الحربية في عام ١٩٤٠ ثم انضم للحرس الملكي حتى تطوع في حرب فلسطين عام ١٩٤٨ وظهر نبوغه مبكرا وانضم للضباط الأحرار وجمعته الصداقة والخبرة بجمال عبدالناصر وهو مؤسس قوات المظلات والصاعقة وكان قائدا للقوات العربية في الكونغو عام ٦٠ حارب في اليمن وابتكر خطة عسكرية هناك.. كانت مجموعته العسكرية في عام ١٩٦٧ هي الوحيدة التي توغلت حتى حدود فلسطين رغم انسحاب الجيش وعاد بأقل الخسائر.. وهو

قائد معركة شدوان الشهيرة ولما تولى رئاسة أركان الجيش عام ١٩٧١ أعاد بناء القوات المصرية وخطط لحرب أكتوبر بكل دقة ووضع خطته بناء على معرفته بقدراتنا.. وامكانيات العدو واختلف مع السادات في مسألة التعامل مع ثغرة الدفرسوار ووعد أن يقضي عليها بأقل خسائر بشرط سحب بعض القوات من الضفة الغربية لكن السادات رفض وأبعده..

ورشحه بعد ذلك كسفير لمصر في لندن ثم في البرتغال.. ولما قام السادات بزيارة إسرائيل استقال احتجاجا ورفض التعامل مع العدو.. وبدأ في نشر مذكراته واعتبرها السادات إفشاء لأسرار عسكرية وتمت محاكمته غيابيا وظل منفيا بالجزائر لمدة ١٤عاماً.. وفي عام ٩٢ أقنعه البعض بالعودة لكن مبارك وضعه بالسجن ولولا وقفة المشير حسين طنطاوي الكريمة معه لتحول حبسه إلى اهدار لكرامة هذه القيمة العسكرية الكبيرة.

وسر كراهية مبارك له تلك الشعبية الطاغية والنبوغ الذي كان يتمتع به الشاذلي وقد خاف من ذلك كما أن وجوده يعني الكشف عن البطل الحقيقي لحرب أكتوبر وهو عكس ما كان يروج له مبارك ورجاله الذين اغتالوه معنويا في حياته وقد رفض الشاذلي بناء على نصيحة بعض المقربين منه أن يكتب التماسا لمبارك من اجل العفو لأنه لم يرتكب جرما يستحق العقاب.. فقد تم تجريده من الأوسمة التي حصل عليها.. وجمدوا ممتلكاته وأمواله وضيقوا أسباب الحياة حتى على أسرته ولما قامت ثورة ٢٥ يناير أعادت للرجل امتيازاته التي يستحقها وأكثر وجاء الوقت لكي نرد للبطل الأسطوري ما يليق به ونضعه في المكانة الحقيقية له.

وقد قالت العدالة الإلهية كلمتها عندما خرجت جنازة الفريق الشاذلي في ذروة ثورة ٢٥ يناير وقبل ساعات من رحيل مبارك حتى قال القائل: انها لحظة تاريخية فارقة.. احتشدت الجماهير لوداع البطل وتزاحمت وهي تنادي برحيل الباطل!

قبل رحيل مبارك

قبل ثورة ٢٥ يناير بأسابيع.. أجرى الكاتب نشأت الديهي حواراً مطولا مع الفريق سعد الدين الشاذلي نشره في كتاب بعنوان صح النوم سرد في خلاله يوميات الثورة.. وكان الفريق الذي رحل ١١ فبراير ٢٠١١ ليلة رحيل مبارك عن السلطة.. كان بعيد النظر عندما قال: الموقف صعب ودقيق جداً فقد عاشت البلاد سنوات القمع جعلت من المستحيل أن يتم الإصلاح بطرق تقليدية وقد علمنا التاريخ أن أي ديكتاتور يستمر في السلطة لفترة طويلة يصعب إزاحته الا بعملية انقلابية لكي ينطلق للمستقبل ولن تؤتي ثمارها ألا إذا بدأت سياسياً ومن أعلى ولا أمل في أي محاولات إصلاحية سواء كانت اقتصادية أو اجتماعية أو غيرها ما لم يكن ذلك مؤيدا من قيادة سياسية قوية.. ولذلك أنا في اعتقادي انه حاليا ليست هناك رغبة أكيدة من القيادة السياسية لهذا الإصلاح وبدلاً من ذلك كرس الخوف في نفوس الشعب فلابد من تغيير القوانين التي تكبل الحريات وهنا يبرز سؤال وتساؤل في غاية الأهمية: ما الذي سيدفع القيادة السياسية أن تقدم بعملية الإصلاح وهي في السلطة وتسيطر سياسياً واقتصادياً على كل شيء....

وأضاف الشاذلي في الفترات التي كان فيها الحكم تسيطر عليه حكومات قوية ومسيطرة على جميع الأوضاع كانت الإصلاحات تتم بسرعة فائقة وعندما تغيب هذه السلطة كما هو في المرحلة الحالية نجد أن الإصلاحات بسيطة وبطيئة جدا فليس أمامنا لا أن نقبل الأصح البطيء مرحليا إلى أن يصل بنا إلى الخطوات الجريئة وقد اكتشفت شيئا غريبا عندما كنت رئيسا لأركان القوات المسلحة أن معظم من يخالفون القانون ويخالفون المصلحة العامة ليسوا على دراية بماهية الخطأ ولا الصواب أنهم غير مدركين لما يرتكبون من أخطاء...

وكان ميدان العمل المتاح أمامي هو القوات المسلحة ولابد في الوقت نفسه أن يكون هناك المثل والقدوة حتى تسهل عملية التصحيح والتوجيه والتعليم وحتى

يحترمك ويثق بك مرؤوسوك لابد وان تكون قدوة ومثلا لذلك فكل خطأ يرتكب في القوات المسلحة كنت أقوم بعمل دراسة لهذا الخطأ وأبدا في شرح هذا الخطأ من كل الزوايا وأوضح تأثيره على سائر المتغيرات وفي النهاية لابد أن أوضح لهم كيف نصحح الخطأ وبالطبع اشرح لهم ما كان يجب فعله حتى لا نقع في تلك الأخطاء، ويضرب الفريق الشاذلي المثل بما جرى في الهند لقد تقدمت بالعلم.. وساعد العلم في الوصول إلى درجة متقدمة من الديمقراطية.. والبشر عموما لديهم نقطة ضعف نحو السلطة.. وأي شخص يقبض عليها لا يفرط فيها بسهولة ويجب أن نسير جميع البرامج في خطوط متوازية لكن الديمقراطية والتعليم هما الأساس الذي يجب أن نبدأ به فورا والأهم هو التمسك بالمثل والقيم الأخلاقية ومحاولة أصابتها من جديد ومصر ولادة بها كفاءات ما يكفينا للبدء فورا في العملية الإصلاحية المنشودة.

وهكذا تنبأ الفريق الشاذلي ورسم صورة للمستقبل ورحل في الليلة الأولى لرحيل مبارك وشتان بين رحيل ورحيل والحكاية فيها الكثير من الأسرار والخفايا في وضع الأبطال.

خارج السياق :

الفريق سعد الدين الشاذلي، رئيس أركان حرب القوات المسلحة المصرية في الفترة ما بين ١٦ مايو ١٩٧١ وحتى ١٣ ديسمبر ١٩٧٣. ولد بقرية شبراتنا مركز بسيون في محافظة الغربية في دلتا النيل. يوصف بأنه الرأس المدبر للهجوم المصري الناجح على خط الدفاع الإسرائيلي بارليف في حرب أكتوبر عام ١٩٧٣.

- مؤسس وقائد أول فرقة قوات مظلية في مصر (١٩٥٤-١٩٥٩).
- قائد أول قوات عربية (قائد كتيبة مصرية) في الكونغو كجزء من قوات الأمم المتحدة (١٩٦٠-١٩٦١).
- ملحق عسكري في لندن (١٩٦١-١٩٦٣).
- قائد لواء المشاة (شارك في حرب اليمن) (١٩٦٥-١٩٦٦).
- قائد القوات الخاصة (المظلات والصاعقة) (١٩٦٧-١٩٦٩).
- قائد لمنطقة البحر الأحمر العسكرية (١٩٧٠-١٩٧١).
- رئيس هيئة أركان القوات المسلحة المصرية (١٩٧١-١٩٧٣).
- سفير مصر في بريطانيا (١٩٧٤-١٩٧٥)
- سفير مصر في البرتغال (١٩٧٥-١٩٧٨).

حظي بشهرته لأول مرة في عام ١٩٤١ عندما كانت القوات المصرية والبريطانية تواجه القوات الألمانية في الصحراء الغربية خلال الحرب العالمية الثانية، وعندما صدرت الأوامر للقوات المصرية والبريطانية بالانسحاب بقي الملازم الشاذلي ليدمر المعدات المتبقية في وجه القوات الألمانية المتقدمة.

أثبت الشاذلي نفسه مرة أخرى في نكسة ١٩٦٧ عندما كان برتبة لواء ويقود

وحدة من القوات المصرية الخاصة مجموع أفرادها حوالي ١٥٠٠ فرد والمعروفة بمجموعة الشاذلي في مهمة لحراسة وسط سيناء ووسط أسوأ هزيمة شهدها الجيش المصري في العصر الحديث وانقطاع الاتصالات مع القيادة المصرية وكنتيجة لفقدان الاتصال بين الشاذلي وبين قيادة الجيش في سيناء، فقد اتخذ الشاذلي قرارا جريئا فعبر بقواته الحدود الدولية قبل غروب يوم ٥ يونيو وتمركز بقواته داخل الأراضي الفلسطينية المحتلة بحوالي خمسة كيلومترات وبقي هناك يومين إلى أن تم الاتصال بالقيادة العامة المصرية التي أصدرت اليه الأوامر بالانسحاب فورا.

فاستجاب لتلك الأوامر وبدأ انسحابه ليلا وقبل غروب يوم ٨ يونيو في ظروف غاية في الصعوبة، باعتباره كان يسير في أرض يسيطر العدو تمامًا عليها، ومن دون أي دعم جوي، وبالحدود الدنيا من المؤن، واستطاع بحرفية نادرة أن يقطع أراضي سيناء كاملة من الشرق إلى الشط الغربي لقناة السويس (حوالي ٢٠٠ كم). وقد نجح في العودة بقواته ومعداته إلى الجيش المصري سالما، وتفادى النيران الإسرائيلية، وتكبد خسائر بنسبة ١٠ في المئة إلى ٢٠ في المئة. فكان آخر قائد مصري ينسحب بقواته من سيناء.

في ١٦ مايو ١٩٧١، وبعد يوم واحد من اطاحة الرئيس السادات بأقطاب النظام الناصري، فيما سماه بثورة التصحيح عين الشاذلي رئيسًا للأركان بالقوات المسلحة المصرية، باعتبار أنه لم يكن يدين بالولاء الا لشرف الجندية، فلم يكن محسوبًا على أي من المتصارعين على الساحة السياسية المصرية آنذاك. يقول الفريق الشاذلي: كان هذا نتيجة ثقة الرئيس السادات به وبامكانياته، ولأنه لم يكن الأقدم والمؤهل من الناحية الشكلية لقيادة هذا المنصب، ولكن ثقته في قدراته جعلته يستدعيه، ويتخطى حوالي أربعين لواء من الألوية (جمع لواء) الأقدم منه في هذا المنصب. دخل الفريق الشاذلي في خلافات مع الفريق محمد أحمد صادق وزير

الحربية آنذاك حول خطة العمليات الخاصة بتحرير سيناء، حيث كان الفريق صادق يرى أن الجيش المصري يتعين عليه ألا يقوم بأي عملية هجومية الا اذا وصل إلى مرحلة تفوق على العدو في المعدات والكفاءة القتالية لجنوده، عندها فقط يمكنه القيام بعملية كاسحة يحرر بها سيناء كلها.

وجد الفريق الشاذلي أن هذا الكلام لا يتماشى مع الامكانيات الفعلية للجيش، ولذلك طالب أن يقوم بعملية هجومية في حدود إمكانياته، تقضي باسترداد من ١٠ إلى ١٢ كم في عمق سيناء. بنى الفريق الشاذلي رأيه ذلك على أنه من المهم أن تفصل الاستراتيجية الحربية على إمكانياتك وطبقا لإمكانيات العدو.

وسأل الشاذلي الفريق صادق: هل لديك القوات التي تستطيع أن تنفذ بها خطتك ؟ فقال له: لا. فقال له الشاذلي: على أي أساس إذن نضع خطة وليست لدينا الإمكانيات اللازمة لتنفيذها؟ أقال الرئيس السادات الفريق صادق وعين المشير أحمد إسماعيل علي وزيراً للحربية وكانت بينه وبين الفريق الشاذلي خلافات قديمة.